أعلام وأعيان تلاميذ الهلالي من خلال لقاءات معهم في أماكن متعددة (4)

الأستاذ مصطفىٰ محمد الشعشوع [1] التطواني

أمين الخزانة العلمية لمعهد مولاي الحسن للأبحاث، وأستاذ بالمعهد الرسمي، وعضو لجمعية الطالب المغربية، وجمعية قدماء معهد مولاي الحسن، والجمعية الخيرية بتطوان، وجمعية المعهد الحر، وجمعية حنان الخيرية.

كان هذا اللقاء في بيته بتطوان في صباح يوم الاثنين 6 صفر 1430هـ الموافق 2 فبراير 2003م، وبلغ الشعشوع حينئذ تسعة وثمانين عامًا.

أول ما التقىٰ بالهلالي عندما عيِّن باحثًا بمعهد مولاي الحسن للأبحاث، وكان المعهد برئاسة العلامة عبدالله كنون، وكان صديقًا حميمًا للهلالي، قال: «وكانا كالتوأمين النَّجمين»، فرآه الهلاليّ يبحث في المعهد ، وكان متشوِّقًا لمن يأخذ بيده في هذا المضمار، وتوطدت العلاقة بينهما، وكان يقرأ عليه لضعف بصره، ويصحِّح له بعض تجاريب مجلة «لسان الدين» الأولية، وكان ذلك سنة 1942م، وأخبر أن الهلالي لما سافر إلىٰ العراق كان يتعاهد تلاميذه كأنهم أبناء صلبه!

1() له ذِكر في «مراسلات الهلالي» (4/ 1744-1745- الفهرس)، وفيها ما يفيد تعاونه مع شيخه الهلالي في توزيع بعض كتبه، وأن أوراقًا خاصة له كانت عنده فيها كتب ودفاتر ومحافظ مشتملة علىٰ مسوَّدات له، وهي كثيرة، ولعلها تبلغ بضعة كيلو، وأرسلتُ له في جمادىٰ الآخرة سنة 1430هـ -أي بعد نحو ستين سنة من تأريخ رسالة الهلالي له- بعض الإخوة يطلبها منه؛ فأنكر معرفته بها، وادَّعىٰ أنه لأول مرة يسمع بها، قال:

«وأدخلني إلىٰ خزانة قديمة في (جمعية الطالب المغربي)، وطلب مني أن أفتِّش في ركام قديم، فلم أجد شيئًا»، قال: «وسلَّمني كتابًا للهلالي مطبوع باسم «تعليم وتسهيل الكتابة للكبار»».

قلت: وهذا الكتاب من نوادر كتبه، ويدل علىٰ حرص الهلالي علىٰ العامة وتعليمهم.

قال: وعند رجوعه ذات يوم، إذا بشـيخنا الهلالي يطرق الباب، ويسـتأذن بأبيات شعرية قرظها علىٰ البديهة:

ألا أيها الشعشوع إن كنت حاضرًا فبادر بفتح الباب لا تتقاعسا

وأنت نشيط في كل الأمور محبَّكٌ متىٰ يدعوك بدعوىٰ الدَّاعي تُجبه مؤانسًا

وأخبر أن دعوة الهلالي كانت تدور علىٰ التمسك بالصراط المستقيم، والرجوع إلىٰ السنة النبوية، ومحاربة البدع والخرافات، في وقت كان الجو فيه مظلمًا مقوقعًا علىٰ نفسه، تسوده رؤوس أهل البدع، وكانت الدعوة آنذاك إلىٰ البدع ظاهرة مسيطرة، وأن الهلالي ابتدأ دعوته من «الجامع الكبير» بتطوان، وكانت دعوته تلقىٰ إقبالًا لا نظير له، وكان له أنصار وتلاميذ كُثر، ولا سيما من الشباب خاصة، مما أدىٰ سلطات الاحتلال الإسبانية طرده من تطوان، فسافر منها واستقر في (شفشاون)، وكان وراء ذلك علماء السوء!

ويذكر أن أشهر تلاميذه أحمد هارون، ومحمد بوخبزة، وهو، وأنهم سافروا يوم الجمعة إلىٰ شفشاون للقائه، وأنهم دخلوا المسجد ووجدوا الناس يقرؤون القرآن جماعة، فنهرهم وأنكر عليهم ذلك.

وزاد علىٰ ما ذكره شيخه الهلالي في كتابه «الدعوة إلىٰ الله» (ص 258 وما بعد - بتحقيقي) في حادثته مع باشا الشفشاون؛ قال:

«أذكر أنه ما أن وصلنا إلىٰ الشاون-وكان يوم الجمعة- دخلنا المسجد لصلاة الجمعة، فوجد الناس يقرؤون القرآن جماعة؛ فنهرهم وأنكر عليهم قراءتهم تلك، فاستجاب الناس له لهيبته، ولِمَا كان يصلهم عن أخباره عندما كان بتطوان».

واستمرت صلاة الجمعة خالية من تلك البدع، حتىٰ راسل علماء البدع بتطوان عوامَّ شفشاون وحضُّوهم علىٰ استئناف القراءة جماعة، وحذَّروهم من الهلالي ودعوته،

فرجع العوام القهقرىٰ، وصـــارت الجمعة في حالة من الفوضـــىٰ،تحدِّيًا منهم للهلالي وتلامذته.

فلمَّا سمع بذلك؛ قرر إصلاح هذه الوضعية، رغم إخباره بما يترتب عن ذلك من مفاسد؛ لأن علماء تطوان والشاون-وهم من الأعيان- كانوا يتربَّصون به الدوائر، ويسعَون في كل سبيل لإيقاعه في المشاكل مع الاحتلال الإسباني [لأننا لا نحبِّذ الشدة التي تغلب علىٰ طبعه، وكذلك طبائع الشماليين مجبولة علىٰ التحدي]، رغم ذلك ذهب إلىٰ الجامع الكبير؛ فأنكر عليهم هذه الحالة من العبث بالقرآن(1).

فسمع كلامًا من وراءه يقول له: «وَآشُوْ، وَآشُوْ»(2).

فردَّ الهلالي عليه: أتشـوِّش علىٰ حديث رسـول الله –صـلىٰ الله عليه وسـلم- يا جهول!

فكان ذلك المتكلِّم باشا الشاون؛ فأمر الباشا بتصفيده في الحديد واعتقاله.

فتدخلتُ لدىٰ الباشـا، وأخبرته أن الهلالي رجل عالِمي محترم لدىٰ كثير من أعيان المسلمين في العالم، وإنني ضيفه في الشاون، ولا أستطيع الدخول إلىٰ منزله إلا بمَحرم.

فردَّ عليَّ الباشا: إن أردتَ أن أعتقلك معه لا مانع.

فألححتُ عليه؛ فوافق أن أتصل به كتابة ويرُدَّ عليَّ كتابة، دون المشافهة واللقاء.

فكتب شيخنا لي يأمرني أن أطلب من سعادة الخليفة المعظم التدخل لدىٰ الباشا وأشرح له الواقعة.

فتدخل الخليفة المعظم [وكان نائبًا للملك علىٰ الشـمال]؛ فأمر الباشـا بإطلاق سراحه، لكن بشرط المقام بابن قريِّش-وهي قرية بين تطوان والشاون-، وكان هذا القرار

1() انظر كلامه في: «الدعوة إلىٰ الله» (258)، «الحسام الماحق» (90)، وانظر: «الديوان» (529).

2() في «الدعوة إلىٰ الله» (261): «اشت، اسكت». وعلق الشيخ بو خبزة بخطه: «الصواب (است)، وهي كلمة تقال للتنبيه وطلب الإنصات».

إسبانيًّا بإيعاز من أهل البدع؛ وكانوا طبعًافي سعادة وحبور وفرح وسرور لما لحق الهلالي من تضييق.

وكان التلاميذ يزوروني بابن قريِّش للاستفادة منه والتتلمذ عليه، وكانوا ينقلون له أخبار الدَّعوة، وكان يرسل معهم القصائد يهجو فيها أهل البدع والأعيان.

وأصبحت ابن قريِّش ملتقىٰ التلاميذ والأنصار، وراق شيخنا المقام فيها لما تتميز به من الجو الصحي، علمًا أنَّ الهلالي كان يعاني من مرض الرَّبو، فشفي مدة نزوله بها.

وأجاب عن **مميزات الهلالي** بقوله:

كان -رحمه الله تعالىٰ وأسكنه فسيح جنانه- شديد اللهجة دون فضاضة، حنونًا رقيق المشاعر مع من يلتق به، خصوصًا علىٰ تلامذته، دائم النصح والتوجيه، حريصًا علىٰ المواعيد، لو تأخرت عنه خمس دقائق يعاتبك عتابًا شديدًا، ذات مرَّة اصطدم مع أحمد هارون ومعي عندما راسلنا من العراق وتباطأنا في الإجابة والرَّد، فأتبع ذلك برسائل العتاب والتأنيب.

ويفسِّر الشعشوع حدَّة الشيخ بقوله:

«نظرًا لطبيعة المنطقة التي نشأ بها وينتمي إليها وهي تافيلالت بسجلماسة؛ وهي منطقة صحراوية، والصحراويون هذه طبيعتهم، بخلاف مناطق الشمال، فوقع اصطدام بين الطبائع.

إضافة للخيانات الكثيرة التي تعرَّض لها من بعض الأصدقاء وسمَّىٰ واحدًا منهم، وقال: عندما أصبح حاجبًا ملكيًّا، ومن بعض التلاميذ الآخرين.

وكذلك لطبيعة الوضعية الثقافية والدينية التي كانت سائدة بالمغرب آنذاك».

ولما سئل عن **موت الهلالي، وأثره عليه**؛ قال:

«خلَّف موت شيخنا الهلالي ثُلمة عميقة واسعةً في العالم الإسلامي عامة والمغرب خاصة، وصدمنا بفقده مدة ليست بالوجيزة، وما عرفنا حقيقة منزلته حتىٰ رحل عنَّا، رحمه الله –تعالىٰ– رحمة واسعة».

وأخيرًا؛ قال عن **مشروعنا في جمع مقالات الهلالي**:

«إنه عمل علمي بنَّاء ورائع، **أسـقط به عنَّا الإثم** ، جزاه الله خيرًا، وبارك فيه وفي أعماله، وجزاه عنَّا وعن الهلالي خير ما جوزي به الصـالحون، ولا يُلتفت إلىٰ بنيَّات الطريق؛ فالناس لا يعملون الخير ولا يتركون من يعمله».

ونقل عن قصـيدة عبدالله كنون في رثاء شـكيب أرسـلان؛ أن الهلالي قال عنها: «إن هذه القصيدة مفخرة الأدب المغربي، تذكِّرنا بالشعر الأندلسي في أزهىٰ عصوره».

وعلَّق علىٰ كتاب «فضيحة المبشرين في احتجاجهم بالقرآن المبين» لكنون بقوله:

«إنَّه جزء صـغير الحجم كبير المعنىٰ، فيه رد لتُرَّهات المضـلِّين من النصـارىٰ الكاثوليك والبروتيستانتين».

فجزىٰ الله الأسـتاذ مصـطفىٰ الشـعشـوع خيرًا علىٰ ما أفاد وأجاد. توفي رحمه الله تعالىٰ يوم الثلاثاء 28/ 8/ 2018م .